

لغة القرآن الكريم في كتابات الشيخ ياسين

المنزلة والوظائف

رشيد بلحبيب / أستاذ الدراسات اللغوية بجامعة - قطر

rachidb@qu.edu.qa

"لغة القرآن، هي لغة اللسان والقلب والإيمان".

(المنهاج النبوي 147)

"إن عالمية الإسلام تجر معها - كما يجز الملزوم لازمه - عالمية لغة القرآن".

(الإسلام والقومية العلمانية 159)

"وتسويد لغة القرآن في دولة القرآن بديهة، والجهد لذلك واجب".

(حوار مع الفضلاء الديمقراطيين 131)

مقدمة

لحكمة ما - أَرادها الله تعالى - كانت المسألة اللغوية حاضرة منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان، فقد كان أول تعليم رباني تلقاه الجنس البشري ممثلاً في آدم عليه السلام، هو اللغة والبيان، حتى قبل أن يتعلم آدم كسب قوته، أو عبادة ربه، أو ستر عورته (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (البقرة 31) ¹.

ولغاية مشابهة، احتلت اللغة العربية أو "اللغة القرآنية" كما يسميها الشيخ ياسين، منزلة متميزة في المعمار المعرفي لكتاباته، ومع أنه لم يخصص لها فصلاً بعينها في أي من كتبه، إلا أن حضورها وسريانها في شرايين مؤلفاته تنظيراً وتطبيقاً، أمر ملحوظ لا تخطئه العين، فقد كان على وعي عميق بأهمية اللغة العربية، وتأثيرها في فهم الدين

¹ انظر: نداء من أجل العربية، أحمد الريسوني، مجلة الفرقان، العدد 65 / 1431 - 2010. ص 10.

وإدراك أسرار العبارة القرآنية، وتوحيد الأمة على كلمة سواء.

فاللغة عنده، تدرج في سلسلة مكونات الإطار المرجعي والهوياتي للإنسان المسلم، إنها تعطي الأنماط التي نفكر فيها، والتي بواسطتها نبني العالم ونتقدم في فهم الدين والدنيا. وهي تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً مُترصداً، إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأرواح، بين المنطوقات والمفهومات. إنها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها.

وقد وظف الشيخ ياسين اللغة توظيفاً متعدد الأبعاد، وخص في تفاصيلها، بدءاً من تأصيل المصطلحات وتدقيق المعاني، ومروراً بتأكيد الشرط اللغوي للاجتهد... كما تحدث الشيخ عن مناهج تعليم العلوم الشرعية ومكانة اللغة العربية منها، وسرد عدداً من الكتب الضرورية لطالب العلم، وركز على دور اللغة القرآنية في صياغة الهوية الإسلامية الجمعية، ثم تحدث أخيراً عن تأثير اللغات الأجنبية واللهجات المحلية في وحدة الأمة.

وقد جاءت هذه القضايا/ الموضوعات متناثرة في أكثر كتبه، وستحاول الورقة نظمها والتوسع في بيان أبعادها، بالشكل الذي يقدم لنا تصور الشيخ ياسين لمنزلة اللغة العربية ووظائفها، وقد ارتأيت أن أقسم هذا البحث إلى مقدمة وأربعة محاور :

- مقدمة في عناية الشيخ باللغة العربية من خلال الدعوة إلى تعلمها وتعليمها، وقد ظهر ذلك في تجويد كتاباته، والعناية بها فجاءت نصوصه قطعاً من الأناقة متدفقة بالشعرية، يستمتع القارئ بها، وتشده إليها شداً، وتذكرنا رأساً بكتابات الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، ومصطفى صادق الرافعي...

- المحور الأول: في العناية بالدقة اللغوية وبالضبط الاصطلاحي والمفهومي، والتوليد والاشتقاق، وقد نحت الشيخ قائمة من المصطلحات والعبارات، وطبعها بطابعه الخاص... إلى الحد الذي يمكن فيه الحديث عن معجم خاص باستعمالات الشيخ اللغوية، وخاصة في حقل السياسة الشرعية والروحانيات.

- المحور الثاني: في علاقة اللغة العربية بالقرآن الكريم، وبعلمو الشريعة، وبشروط

المجتهد، حيث تحدث عن لغة القرآن باعتبارها لغة اللسان والفكر والروح، وجعلها- مقتديا بسلف الأمة- شرطا من شروط الاجتهاد.

- المحور الثالث: في علاقة لغة القرآن الكريم بالهوية الجمعية للأمة، إذ لم يكتف الشيخ ببيان أهمية العربية في المجال العلمي، بل تجاوز ذلك إلى تأكيد نسج اللغة القرآنية للهوية الجمعية للأمة، ودورها في توحيد طرق التفكير والمشاعر.

- المحور الرابع: في نقد العجمة والرد على المستعجمين، حيث يعيش الشيخ عصره بكل تموجاته، ويتابع اكتساح اللغات الأجنبية لألسنة الهوية، ومضايقات اللهجات المحلية/ الضرات، للغة القرآن، ودورها في خلخلة النسيج الاجتماعي للأمة، وتصدى لدعاة التغريب اللغوي وأنصار الألسنة العجمية، وتتبع شبهاتهم ورد عليها بالحجة والدليل.

وسيكون منطقي في تناول هذه القضايا إن شاء الله، ما تناثر في مؤلفات الشيخ ياسين من أقوال واستدلالات، أجمعها وأنسج منها كلا منتظما يكشف تصور الشيخ للمسألة اللغوية، طلبا لوضوح الرؤية وتوثيقها، وتحقيقا للموضوعية.

في العناية باللغة ومصطلحاتها

اعتنى الشيخ ياسين بالمصطلحات ودلالاتها، إدراكاً منه لخطورة حرب الدلالات وخاصة في مجالات الفكر والفلسفة والإيديولوجيا يقول: "ما من كلمة من المفردات في قاموس المثقفين إلا لها خلفيات لائكية فلسفية. ما منها إلا له دلالات ومرجعيات معناها من هناك وإن كان مبناها يتأرجح ويترنح ليزعم أنه عربي. ما منها إلا ينكر وجود الله، ويسخر بمن يصدق بالبعث والنشور والجنة والنار والجن والملائكة.

إن كنا نحن ننفق جهدنا ووسع إيماننا وشجاعتنا في المتح من قاموس القرآن والحديث، فهم من الكيس الثقافي الزاخر ينفقون. ويميل بعضنا تطفافاً، ويركن شيئاً قليلاً أو كثيراً بحكم تكوينه أو بحكم حرصه على الإسماع والتبليغ، فيستعمل من الكلمات المملوغة والعبارات المروكومة".¹

وقد شاعت هذه الألفاظ بدلالاتها المستعارة لدى الشباب، وشكلت خطراً حقيقياً على بناء المعرفة لديهم، يقول الشيخ: "بجد في خطاب الجيل الثاني من الشباب الوطني شخناً من الألفاظ الثورية التقدمية التاريخية اليسارية، شعروا يوماً بالحاجة إليها للتعبير عن فكر جديد لا يُؤدَّى إلا بالألفاظ جديدة مُترجمة إلى العربية. فاحتل العقول والقلوب الغضب الثوري ومعه لغته، وعُقلت الألسن عن اللفظ العربي القرآني، فإذا الإسلام ذاكرة تاريخية"، وإذا الذي تخشى أن يحاسبك هو التاريخ، وإذا، وإذا...

إنَّ الذي يحدث عند كثيرين من الكتبة عن الإسلام هو استعمال اللغة العقلانية الثقافية، من خلال عباراتهم البعيدة عن القرآن وبيان القرآن. لا ترشح من أقلامهم إلا أفكار سطحية مادية اصطبغت على أصلها "الحضاري الثقافي العقلاني" بصبغة إسلامية شفافة. إنه تلوث وتحد أمام الريانية لتعيد العقل المسلم إلى نصابه".²

¹ ياسين، عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1994،

ويستدل على ذلك بكتابات حسن حنفي، يقول: "يقترح الفيلسوف المحدد - في صفحة 99 من كتابه "التراث والتجديد" - إلغاء حتى كلمة إسلام: "لفظ "التحرر" هو اللفظ الجديد الذي يعبر عن مضمون "الإسلام" أكثر من اللفظ القديم".

وفي صفحة 103 يقترح حسن حنفي التعامل مع "لغة العقل" أي دين الإلحاد بدل التعامل والإيمان بلغة الدين ومعاني الدين: "اللغة العقلية هي التي يفهمها كل الناس بلا شرح أو تعليق أو سؤال أو استفسار (...). فالعمل، والحرية، والشورى والطبيعة، والعقل كلها ألفاظ عقلية في علم التوحيد (...). أما ألفاظ الله، والجنة، والنار، والآخرة، والحساب، والعقاب، والصراط والميزان، والحوض فهي ألفاظ قطعية صرفة لا يمكن للعقل أن يتعامل معها دون فهم أو تفسير أو تأويل".¹

ويبدو الحديث عن كل هذه الأمور بمعزل عن لغة القرآن هذرا في سمع المؤمنين. يكتنف الغموض، ويكتنف خوف الناس المسألة من أطرافها، فتتعم الأجرء، ويتحول الكلام إلى حوار صُم...²

ويعلن الأستاذ ياسين موقفه صراحة من مصطلحات الحدائين المشحونة بالتضليل، يقول: "لا حاجة لي بالمصطلحات المحدثه، فلي غنى عنها بلغة القرآن وبيان إمام أهل الإحسان... عندنا المعيار هو الإيمان، والمرجع القرآن، واللغة والمصطلح قرآني نبويّ. فإما ننساق والنخبه المثقفه في تيار لغة العالميه اللائيكيه، وذلك ما يآباه لنا إسلامنا نحن المسلمين، وما يآباه للمثقفين الأحرار نفورهم من الاستلاب الثقافي".³

ذلك لأن "الكلمات في لغات الغرب مكتنزة من شحنات ليست فيها رائحة

¹ ياسين، عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 1، 1989، ص 80.

² ياسين، عبد السلام، الشورى والديموقراطية، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1996، ص 44.

³ نفسه 23.

الرحمة، واللغة العربية لغة رحمة وحكمة، غلب عليها روح القرآن".¹ فتقرأ وتسمع خطابا بألفاظ عربية، لكن بمعان تلعبها لغة القرآن. لا حاجة بنا إلى حكاية لغة الأيديولوجيات والفلسفة لكي يفهمنا ممسوخو الفكر.² ويقول: "نعبر نحن بلغة القرآن عن الضّعف والهزيمة فنسميهما "ركونا إلى الذين ظلموا".³

و"نقول" فلان حيوان سياسي إذا كان فلان يتمتع بحسٍّ يمكنه من معرفة أين تهب الرياح السياسية، وكان معه من حصافة الرأي ما يمكنه من تغيير اللهجة وقلب الوجهة بالقدر المناسب في الوقت المناسب، ليقتنص أصواتا انتخابية، ويعتلي مناصب سامية، ويخُدم قضيته النضالية إن كان -بالصدفة- له قضية. نسمي نحن بلغة القرآن منافقا مثل هذا الحيوان.⁴

والعلم -بصيغة الأفراد- هو العلم بالله وبما أنزل الله. ويضع هذا التمييز مكتسبات العقل البشري من علوم الكون مكانها، كما يرجع إلى نسبته الكون المخلوق أمام أوهية الخالق. وأفضل كلمة "علوم" بالجمع للتعبير عن العلوم الكونية المكتسبة.⁵ هكذا يشقق الأستاذ من اللغة مصطلحات وألفاظا يبتكرها، ويضمنها شحنات دلالية، إنه قادر على نحت عشرات المصطلحات الخاصة باللغة القرآنية وبالاستعمال الياسيني، ويحرص حرصا شديدا على العودة لمعاجم اللغة ليدقق معاني بعض الكلمات التي قد لا يدركها القارئ، وكأنه يشعرنا بفقدان معانيها أو تلاشيها مع الزمن، أو

¹ ياسين، عبد السلام، الإسلام وتحدي الماركسية، ط 1، 1987، ص 55.

² ياسين، عبد السلام، المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، ط 1، 1981، ص 364.

³ نفسه ص 105.

⁴ ياسين عبد السلام، الشورى والديمقراطية ص 107.

⁵ ياسين، عبد السلام، حوار الماضي والمستقبل، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1997، ص

- اختلاطها بما يشوه دلالتها، ويصدر لها بقوله: "قال أهل اللغة" ليعيد للكلمة بريقها الأصيل ويربطها بدلالاتها القرآنية المتميزة، وهذه بعض النماذج:
- قال أهل اللغة: تبرُّجُ المرأة إظهارها لمحاسنها، وخروجها من بُرجها وحِصْنِها.¹
 - قال أهل اللغة: السكينة زوال الرعب. وقيل هو مَلَكٌ يسكن القلوب. وقيل هو العقل الذي يميل عن الشهوات²
 - الغُثَاءُ غُثَاءُ السيلِ وغُثَاءُ القِدْرِ. وهو "ما يَطْفَحُ ويتفرَّق من النَّباتِ اليابس وزيد القدر. ويضرب به المثل فيما يضيع ويذهب غير مُعتدِّ به". هكذا قال علماء اللغة.³
 - والنصيحة في اللغة تحمل معنى الوضوح ومعنى الربط.⁴
 - قال الإمام النووي رحمه الله في شرح التنطع: "التقعر في الكلام بالتشدق، وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم".⁵
 - قال أهل اللغة: "الْوَزْغُ كَفُّ النفس عن هواها". قالوا: "الوازع في الحرب: المؤكَّل بالصفوف، يَزَعُ من تقدم بغير أمره".⁶
 - قال أهل اللغة: عتا بمعنى نبا عن الطاعة وخرج. الأصلُ الطاعة، والمطيعون هم القاعدة الاجتماعية. والمخالف نابٍ خارج تدرج المسلمون في عقابه من ضرب بالأردية والنعال إلى الجلد كلما عز الإسلام وقوي الإيمان واكتمل السلطان.⁷

¹ ياسين، عبد السلام، العدل: الإسلاميون والحكم، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 2000، ص491.

² نفسه 496.

³ نفسه 43.

⁴ ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي ص94.

⁵ ياسين عبد السلام، العدل: الإسلاميون والحكم ص52.

⁶ نفسه ص151.

⁷ نفسه ص157.

- الصدع في اللغة هو "الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد". فهو أمر بتبليغ الدعوة بقوة.¹
- قال أهل اللغة: **الحواريون**: الذين أُخْلِصُوا ونُقُوا من كل عيب.²
- قال علماء اللغة: **والأشُر** مثل البَطْر زهوٌ فارغ. والتكاثُر والتناجش في الدنيا مثَلان، والتباغض والتحاسد صنوان. والبغي هو الهيكل المحلول المنقوض للأمة الغناء، يلفها بسياط العض والجبر بينما يلفَعُها من داخلِ البَطْر وأخوه، والتكاثُر وحَمُوه، والتباغض وقرينه. وإن محاولة العلاج بالإصلاحات السياسية وحدها لَكَمَنْ يُبَيِّضُ واجهة مرضوضة منقوضة.³
- يفسر أهل اللغة **الافتحام** بأنه "توسُّطُ شِدَّةٍ مُخِيفَةٍ" أي الدخول في معترك ساخن.⁴
- **المروءة** كما قال أهل اللغة هي كمال الرجولة. هي "البذل والعطاء وكف الهمة عن الأسباب الدنيئة". هي كفاءات عملية. هي معلومات وتقنيات مُحَصَّلَةٌ لا يُؤثر في الواقع غيرها. لا يُؤثر في الواقع النوايا الطيبة والتدين الأجوف العاجز.⁵
- قال أهل اللغة: **صَبَرَ**: حَبَسَ. وصبر الرجل: نصبه للقتل.⁶
- **البرُّ** هو "التوسع في فعل الخير" كما قال علماء اللغة. والبذل العطاء بلا منع ولا صون للمال. وفي كلمة "بذل" معنى ابتذال الملك وامتهانه. وذلك دليل على أنه لم تبق للمال في القلب حرمة، وأن قيمته بدت تافهة منذ قارنه المؤمن بثواب الآخرة

¹ نفسه ص 157.

² ياسين عبد السلام، العدل: الإسلاميون والحكم 559.

³ نفسه 44.

⁴ نفسه 50.

⁵ نفسه 508.

⁶ نفسه 63.

الباقي.¹

- الرجال في لغة القرآن هم الجامعون بين خصليتي الصدق والذكر، لقوله تعالى: "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ" (الأحزاب: 23).²

- الاقتصاد في لغة القرآن معناها الاستقامة على الطريق بين طرفي الإفراط والتفريط، ويتضمن معنى الاعتدال والتوسط. وأستعمل الكلمة بهذا المعنى وبالمعنى اللغوي الذي يفيد السير في الطريق بمواظبة وبدون انقطاع، ويفيد الصمود إلى الهدف المنشود، كما تقول العرب: أقصد السهم إذا أصاب وقتل مكانه.³

- اللؤثة - بضم اللام- الخَلْطُ والاختلاط والعجز عن إبانة المقصود...⁴

عندما نجمع هذه الكلمات، نجد الرابط بينها قرآنيتهما، وانتماءها لحقل دلالي تربوي بامتياز: البر، والصبر، والرجال، والمروءة، والصدع، والعدل، والإحسان والنصيحة... وهي المعاني السامية التي يحرص الأستاذ ياسين على بيان معانيها وتحليلها من الشوائب التي قد علقّت بها على مر الزمن...

كما يحرص من جهة أخرى على وضع الكلمات في موضعها وتسمية الأشياء بأسمائها، فالحدق السياسي بلغة القرآن هو النفاق⁵، والضعف والهزيمة نسميهما "ركونا إلى الذين ظلموا"⁶... ويمكن تتبع مصطلحات الشيخ للوصول إلى معجم لغوي واصطلاحي خاص بامتياز.

ويمكن ختم هذه الجزئية بكلمة جامعة للشيخ يقول فيها: "ليس المشكل هو إسعاف المتعلم والمفكر بالعربية بالكلمات اللازمة، لكن المشكل أن تطور أداة

¹ نفسه 196.

² ياسين، عبد السلام، الإحسان، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1998، 493/2.

³ نفسه ص 373.

⁴ نفسه.

⁵ ياسين عبد السلام، الشورى والديموقراطية ص 286.

⁶ نفسه ص 105.

للتعبير عن العصر دون أن نضيع بعيدا عن لغة القرآن، أن نسعف العقل بأداة
إجرائية مع تقوية لغة القلب.¹

¹ ياسين، عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية، ط 1، 1989، 22.

منزلة اللغة من المعمار الديني والمعرفي

لقد كانت اللغة وما تزال وسيلة الاتصال الأولى بين الشعوب، وهي وسيلة اتصال السماء بالأرض في كل الديانات والرسالات، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والمرسلين بلسان قومهم ليفهموا عنهم "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" (إبراهيم: 4).

وقد نُقلتْ لنا أخبار كثيرة عن سلف هذه الأمة توضح لنا نظرهم التقديرية إلى اللغة العربية، وإنزالهم إياها منزلة لا تُلغى، فالعربية عندهم لسان الوحي ووجه من وجوه الإعجاز فيه، والاشتغال بها لا يقل أهمية عن الاشتغال بعلوم الشريعة، يقول أبي بن كعب رضي الله عنه: "تعلموا العربية كما تتعلمون حفظ القرآن"¹ وقد قال عمر بن الخطاب "تعلموا العربية فإنها من دينكم"، وقال الحسين بن علي رضي الله عنه: "تعلموا العربية فإنها لسان الله الذي يخاطب به الناس يوم القيامة"، وقال ابن تيمية: "إن اللغة العربية من الدين، ومعرفة فرض واجب... بل وذهب علماء المسلمين إلى رصد تأثير اللغة في المروءة والخلق، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تفقهوا في العربية فإنها تزيد في العقل، وتثبت المروءة"، وكان التابعي الجليل قتادة يقول: "لا أسأل عن عقل رجل لم يدلّه عقله على أن يتعلم من العربية ما يصلح به لسانه"... وقال طه حسين من المعاصرين: "إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا معرفة لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضا"²... هذه اللغة في نضجها الكبير هي التي أوحى الله بها القرآن الكريم، فنقلها نقلة نوعية، من لغة قوم إلى لغة أقوام، من لغة محدودة بحدود أصحابها إلى لغة دعوة جاءت إلى الناس أجمعين، فكانت العربية بذلك لسان تلك الدعوة ولغة تلك الرسالة التي

¹ رواه ابن أبي شيبة بلفظ (تعلموا اللحن والفرائض فإنها من دينكم) برقم 29926.

² ينظر: بلحبيب، رشيد، فطره الدفّاع عن اللّغة الأمّ بين التّفصيل والتّعطيل (كتاب مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر، المدينة المنورة، مطابع الجامعة الإسلامية) ج7، ص 63.

أكدت معجزة القرآن الكبرى.

فاللغة العربية، لغة القرآن - عند الشيخ ياسين - هي اللغة الوحيدة القادرة على حمل رسالة الله إلى الإنسان.¹

ومنزلتها عنده عالية، تقع في قمة الهرم المؤدية إلى المعرفة القرآنية، وموقعها دليل على إدراك واع بالمهمة ما فوق التواصلية للغة العربية، من خلال ربطها المباشر بالقلب والإيمان " لغة القرآن، هي لغة اللسان والقلب والإيمان"²، وهي أداة الدعوة إلى الحق وترجمانه، باعتبار أن " الدعوة إلى الله نداء من قلب مؤمن، وعقل عالم، إلى سمع الناس وعاطفتهم. اللسان أداة هذا النداء، واللغة وسيلته، والفصاحة المقنعة المخلصة أسلوبه.

ولأن توضيح الجادة البيضاء لا يصلح إلا بلغة القرآن ولغة النبوة!³ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً عظيماً، وكان يرشد أصحابه إلى أساليب الخطابة الإسلامية، ويصحح أخطاءهم...⁴

كما كان الصحابة رضي الله عنهم عرباً فصحاء يعرفون البلاغة العربية سليقة، ويذوقون المجاز والإشارة، فيتنزل القرآن وهو غض حديث البروز إلى عالم الشهادة.⁵ إن الله عز وجل مدبر الكون وخالقه يسر للعربية ظروفها، خص العرب وهم قوم من خلقه بما علم أنه يناسب ما يريد إظهاره من رسالته الخاتمة، وألهمهم إلهام الفطرة لساناً أعده على مر الأزمان ليكون وعاء لوحيه.⁶

¹ ياسين، عبد السلام، الإسلام والحداثة، مطبوعات الهلال، وجدة، ط 1، 2000، ص 7.

² ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي ص 147 .

³ ياسين، عبد السلام، القرآن والنبوة، دار لبنان، 2010، ص 90.

⁴ المنهاج النبوي ص 214.

⁵ ياسين عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ ص 20.

⁶ ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص 167.

لغة القرآن، لغة شرفها الله واصطفها وجعلها وعاءً لكلامه المقدس، وأداة تعبير وتبليغ للرسالة الخالدة التي تخبر الإنسان عن معنى وجوده في هذه الأرض، وعن مصيره بعد أن يُدَسَّ بعد الموت في هذه الأرض. يتعلم العربي آيات الله بلسانه السليقيّ الفصيح... ويتعلم العجمي من اللسان العربي ومن آيات الله ما يقيم به صلاته، وما يتلو به كتاب ربه.

وذلك بما تحملته اللغة العربية من بركات الوحي الإلهي، وما تغشأها من هيئته... وقد كانت عروبة العرب اللغوية مكملًا لاستعداداتهم الأخرى المواكبة والمساعدة.¹ على غرار كبار علماء الأمة يرى الشيخ ياسين اللغة العربية حسناء جميلة، وقد رآها ابن جني شجاعة، ورآها ابن فارس شريفة، ورآها الشاطبي سيدة اللغات، ورآها العقاد شاعرة... يقول: "حسناء رائعة الجمال هي لغة القرآن. سَمِجَاتٌ قَبِيحَاتٌ شَوْهَاتٌ رَذِيْلَاتٌ غَيْرُهَا مِنَ اللَّغَى إِنْ مَدَدْنَا أَكْفَنَّا نَسْتَجِدِي مِنْ لُغَةٍ غَيْرِنَا وَفَكْرٍ غَيْرِنَا عِزًّا... تَرْجِعُ الْأَكْفَ بِحَيَّةٍ، بَغْبِنَةً..."²

كل لغة غيرها منقوصة الأعضاء مبتورتها عديمة الكفاءة عن التعبير في ميدان الرحمة. وأذكّر أنني أقصد بالرحمة من الله عز وجل إلى العبد، أقصد تلك العلاقة الإيمانية الإحسانية... وأقصد بالحكمة اجتهاد العقل وإنجازه لمقتضيات الرحمة...³ ويشير الشيخ إلى تعلقه وإخوانه المسلمين بالعربية قائلاً: "أما نحن فإن لنا تعلقاً خاصاً باللغة القرآنية، تعلقاً هو من الدين، من صميم الدين، لأن شكل اللغة لا يمكن فصله عن مضمون الرسالة. اللغة العربية هي الوعاء، هي الرحم، هي الجسم، جمالها ليس هو القيمة، لكن القيمة ما حمله إلى عقلنا وقلبنا ذلك الجمال، بياها ليس

¹ نفسه ص 12.

² ياسين عبد السلام حوار مع صديق أمازيغي، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1997، ص

³ ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص 22.

الغاية والمعنى، لكن ما أبانه من معان... ثم إن القرآن كلام الله عز وجل لفظاً ومعنى، ما هي الألفاظ العربية من كلام الله حتى تكون في التركيب القرآني. وعندئذ فقط يكون اللفظ بالقرآن في الصلاة مجزئاً، وتكون الصلاة صلاة.¹

"في دولة القرآن، وحيثما كان الرب ربا والقرآن كتابه، يجب أن تكون لغة القرآن كما قال الإمام الشاطبي رحمه الله سيده اللغات: "إن كان - القرآن - بُعث للناس كافة، فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسن في هذا الأمر تبعاً للسان العرب. وإذا كان كذلك فلا يُفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه، وهو اعتبارُ ألفاظها ومعانيها وأساليبها".²

ولعل هذا ما يدفع المسلمين العجم والعرب لتبني لغة القرآن التي جمعت قلوبهم على كلمة الإيمان والتقوى لتجمع عقولهم على جهاد تحديث اللغة العربية وترويضها، لتحمل أسرار العلوم الكونية وخبرات التجارب البشرية، ولتصبح اللغة العالمية المنافسة في كل الميادين، الجديرة بحمل روح رسالة الله إلى الإنسان المودعة في اللسان العربي المبين، في كتاب نزل به الروح الأمين. لتحمل الرسالة الخالدة وهي ترفل في حلال زيتها الكونية. تجاوب وتقايل وتفاعل بين قمة صرح القوة والقدرة وبين أساسه.³

إن إتقان العربية يقود إلى فهم الدين والارتقاء في مدارجه، واللغة من شأنها أن تسهم في تنمية الإنسان المسلم وإمداده بالقدرات الضرورية لفهم مراد الله تعالى، حتى يكون تدينه مؤسساً تأسيساً علمياً، وهذا ما عبر عنه الإمام الشاطبي بقوله: (إن الشريعة عربية، وإن كانت عربية، فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم... فإذا افترضنا مبتدئاً في فهم العربية، فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً

¹ نفسه ص 11.

² ياسين، عبد السلام، إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة والنشر، ط 1، 2009، ص 186.

³ ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص 111.

فهو متوسط في فهم الشريعة، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة¹.

وقد ذهب ابن تيمية أبعد من ذلك حين ربط اللغة بالعقل قال: (اعلم أنّ اعتياد اللغة يؤثر في العقل والحلق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً في مشابحة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابحتهم تزيد العقل والدين والحلق²). ...
إذن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أن نحفظ القانون العربي، ونُصلح الألسن المائلة عنه، حتى يحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والافتداء بالعرب في خطابها .

يقول الشيخ ياسين: "وإذا كان ذلك كذلك، وجب على المسلمين أن يجعلوا لغة القرآن اللغة الواجب تعلّمها، وأن يكون تعلمهم اللغات الأجنبية وسيلة لإثراء محصولنا من العلوم الكونية، ريثما نستقل بها. وفي بلاد العجم المسلمين يُفرضُ تعلّم العربية وهجر ما سواها تدريجياً. قال العلامة ابن خلدون رحمه الله: "الدين والملة صورة للوجود وللملك، وكلها مواد له. والصورة مقدّمة على المادة. والدين إنما يُستفاد من الشريعة، وهي بلسان العرب لِمَا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عربيّ. فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها. واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن رطانة الأعاجم. وقال: إنها خبّ، أي مكر وخديعة"³.

واللغة أهم وسيلة من وسائل توحيد الأمة على كلمة سواء، خاصة في عالم تطورت فيه وسائل الاتصال التي قربت البعيد، يقول الشيخ: "إن كان عاق تعميم العربية في تاريخنا سعة المساحة، وتباعد الشقة، وتصارع القوميات، وفشو العجمة، فإن مشروع

¹ الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة 485/4، وانظر: الريسوي، أحمد، نظرية المقاصد عند الشاطبي، ص 236.

² ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ص 207، ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الحقيقة بقوله: "إن اللغة من الدين، ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا باللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب."

³ نفسه.

وحدة المسلمين الذي يبشر به ويحمّله الإسلاميون، ثم الثورة التواصلية التي قربت البعيد، وأبلغت الصورة والصوت والمعلومات في لمح البصر من أقصاها إلى أقصاها، من شأنهما أن يجعلتا تعميم اللغة القرآنية الشريفة المنيفة في متناول المهمة¹.
كما يؤكد الشيخ أهمية تعليم العربية للناطقين بها وبغيرها من المسلمين، لما لذلك من أهمية في توحيد الأمة "وإن تعليم اللغة العربية للشعوب المسلمة عجمها وعربها لما يتحتم أن نجعله في صدر الأولويات. توحد اللغة القدرة على الاستقاء من النبع الواحد كما توحد التفاهم والتقارب وتبادل المصالح. وكل ذلك شرط وفرض وضرورة تاريخية لتوحيد المسلمين.² وتسويد لغة القرآن في دولة القرآن بديهة، والجهاد لذلك واجب.³

وإذا كان إسلام المرء لا يحسن إلى بتعلم جزء من العربية يقيم به صلواته، فإن لمجتهد لا يكتفي بما تقنع به العامة، ولذلك اشترط العلماء في المجتهد الذي يستنبط الأحكام، ويستنتق النصوص، ويراعي في الترجيح مقاصد الشريعة ومصالح العباد أن يكون عالما متبحرا في اللغة العربية، وأن تكون آيات الأحكام وأحاديثها محققة نُصِبَ عينيه، وأن يكون على معرفة تامة بالحالة الاجتماعية الاقتصادية العُرفِيَّة للعباد...⁴
وقد فصل الإمام الغزالي -رحمه الله- الكلام في الحد الأدنى من علم اللغة الضروري للمجتهد فقال: "إنه القدر الذي يفهم به الخطاب العربي، وعادتهم في الاستعمال حين يميز بين صريح الكلام، وظاهره ومجمله، وحقيقته ومجازه، وعامه وخاصه، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه ومقيده، ونصه وفحواه، ولحنه ومفهومه. وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ في اللغة درجة الاجتهاد".

¹ ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين ص 131.

² نفسه ص 130.

³ نفسه ص 159.

⁴ ياسين عبد السلام، العدل: الإسلاميون والحكم ص 147.

يقول الشيخ ياسين: "مؤهلات الاجتهاد هي العلم بكتاب الله وسنة رسوله، ومقاصد الشريعة، والفهم عن الله بإتقان لغة القرآن، والاطلاع على الناسخ والمنسوخ...¹

ويقول في سياق آخر: "يقتضي هذا أن يكون للمجتهد المتصدي لفهم كتاب الله وسنة رسوله التبحر التام في نحو اللغة وصرفها وبلاغتها حتى يستشف ما يحمله ظاهر اللفظ وما يستتر وراء التراكيب من دقيق المعاني ولطيف التعابير، بذلك فقط، يمكنه أن يستخرج الأحكام الشرعية. فلا تقل صحة فهم اللغة عن أهمية صحة النص. فإن دخلت العجمة في اللسان أو حالت عجمة القلب والعقل عن النفوذ إلى أسرار اللغة، فلا أمل في أن يبلغ النداء الإلهي محله من الوعي، ولا أن تستشرف العقول المستعجمة المستغربة إلى مجالي العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.²

العجمة والجهل باللغة تخلف في الدين ومدخل للضلالات:

يقول الشيخ ياسين: "إن دخلت العجمة في اللسان أو حالت عجمة القلب والعقل عن النفوذ إلى أسرار اللغة فلا أمل في أن يبلغ النداء الإلهي محله من الوعي."³

وذلك لما للعجمة من أثر في الفهم، المعبر عن عجمة العقول وانطماس الأفتدة عن تعقل القرآن بلغة القرآن. ترجماً هناك في بواطن الفكر المغرّب وظواهر النطق المغرّب واقف بالمرصاد، معه مصفاة العقلانية ينفي بها من ساحة الكلام والعبادة والمذهبية ما تنفيه سلطة القمع بقوارع القمع."⁴

وقديما كان الحسن البصري رحمه الله يقول: "إنما أهلككم العجمة!"

¹ ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي ص123.

² ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص14.

³ نفسه ص14.

⁴ ياسين عبد السلام، حوار الماضي والمستقبل ص16.

وإذا كان الجهل باللغة القومية عارا ، فإن الجهل باللغة الدينية خطيئة وضلالة، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام لمن أخطأ بحضرته: (أرشدوا أحاكم فقد ضل)، فتأمل كيف وصف الخطأ في اللغة بوصف يكون عادة في العقيدة ، ومما لا أشك فيه أن هذه الكلمة لها - بما أوتي صاحبها عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم، ودقة التعبير المسدد بالوحي - ما نفسر به الضلالات التي نراها في العقائد والملل والأهواء والنحل والتي مصدرها الأول الجهل باللغة، إن الجاهل باللغة ، كالجاهل بالدين يحتاج كلاهما إلى إرشاد وتوجيه .

ولهذا ذكر الإمام الشافعي أنّ على الخاصّة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم، الاجتهاد في تعلّم لسان العرب ولغاتها، التي بها تمام التوصل إلى معرفة ما في الكتاب والسُنن والآثار، وأقاويل المفسّرين من الصحابة والتابعين... فإنّ من جهل سعة لسان العرب وكثرة ألفاظها، وافتنانها في مذهبها جهل جمل علم الكتاب، ومن علمها، ووقف على مذهبها، وفهم ما تأوّله أهل التفسير فيها، زالت عنه الشبه الداخلية على من جهل لسانها من ذوي الأهواء والبدع.¹

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " لا بُدّ في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرّف ما يدلّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يُفهم كلامه ، فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها ممّا يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ، فإنّ عامّة ضلال أهم البدع كان بهذا السبب ، فإنّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك " .²

¹ وزاد البيهقي في (شعب الإيمان) في باب طلب العلم، عن الواقدي بسنده، عن أبي الزناد عن أبيه، قال: "ما تزدق بالشرق إلا جهلاء بكلام العرب، وعجمة قلوبهم" - شعب الإيمان للبيهقي، 260/2. يقول مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إن لم يكن عالماً بلغات العرب البرهان في علوم القرآن 292/1.

² ابن تيمية، مجموع الفتاوى 116/7 .

وكان الأصمعي يقول: "تعلموا النحو فإن بني إسرائيل كفروا بكلمة" ¹. وقد وقعت فرق كثيرة في الضلالات بسبب العجمة والجهل المطبق باللغة العربية، يقول الشيخ ياسين: "ولذلك كان تحرز أسلافنا رحمهم الله من العجمة شديدا... وكان علماءهم يخالطون عرب البادية يخشون من خلطة أنباط المدن وأعاجمهم. فكان أئمة اللغة حجة يرجع إليها الفقهاء والمجتهدون. والإمام الشافعي - رحمه الله - نفسه، قضى زمانا في البادية ليتعلم اللغة العربية البريئة من كل عجمة." ²

العربية المسلمة والعربية الغافلة عن ذكر الله :

ابتليت أمتنا بالفكر المترجم بالفكر الفلسفي الأيديولوجي. فتقرأ وتسمع خطابا بألفاظ عربية، لكن بمعان تلعنها لغة القرآن. لا حاجة بنا إلى حكاية لغة الأيديولوجيات والفلسفة لكي يفهمنا ممسوخو الفكر. ³

لتفادي كل غموض أو سوء تفاهم، ينبغي تحذير القارئ ولفت انتباهه إلى أن التفكيك في الإسلام والتعبير عن مضمون الإسلام ورسالته بواسطة لغة معلمنة يعتبر مغامرة ثقافية غير سهلة. أما إذا كان الوسيط غير حاذق وغير متمرس باللغة المضيفة، فإن الأمر يصبح أكثر هشاشة. أن تأتمن على رسالة الإسلام لغة يعرف عالمها الدلالي والثقافي فرقا صارخا بل معارضا للإسلام، هو في حد ذاته شروع في عدم التفاهم وعدم التواصل. ⁴

وقد أصبحت هذه اللغة الغافلة عن الله المغفلة عنه أسلوبا مألوفاً، ينشأ عليها الخلف بعد السلف في أحضان إسلام أجوف منبهر مأخوذ، يولي وجهه نحو الكون ومن فيه وما فيه إلا أوقاتا مخصوصة مستثناة يولي وجهه فيها نحو بيت الله لينثر الصلاة

¹ ياقوت الحموي، معجم الأدباء 71/1.

² ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص 15.

³ ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص 364.

⁴ ياسين عبد السلام، الإسلام والحداثة ص 25.

نقرأ، أو يوليها المصحف ليقراً آيات الله المبينة كل المبينة للغة الفكر والحضارة
والبديل.¹

نسيت أن أتذكر وأتحسر على ما فعله اللائكيون بلغة القرآن العزيزة. نسيت أن
أتذكر وأتحسر على أن ألد أعداء القرآن هم الناطقون بلغة مترجمة، لفظها ومبناها
عربيان ومعانيها أعجمية كافرة. الناطقون باللفظ العربي ينافقون الشعب المسلم و
يتملقونه بتبني لهجته ولغة دينه، ويتباهون في معارض الثقافات القومية بلغة أصيلة مجيدة
ترفع الرأس عالياً بين الأقاليم.²

اللغة العربية والقومية العربية، من العرق إلى اللسان:

يرى الشيخ أن هناك ترابطاً قوياً بين الإسلام والعربية، وتعلقاً للمسلم بالعربية لا
يدفعه إليه إحساس قومي أو نزعة عرقية " وما من مسلم ومسلمة يحرصان على
دينهما إلا يتعلمان حداً أدنى من القرآن الكريم بلفظه العربي، فيكون ذلك وصلة لكلام
الله عز وجل، وشرطاً في صحة العبادات، وشعوراً إيمانياً لا يعوضه شيء غير التبليغ أو
التضلع من الكتاب العربي المبارك.³

يستشف مما سبق أن الإسلام يمتلك تصوراً متقدماً للمسألة اللغوية، يضاف إلى
سماحة الإسلام وقدرته على الاستقطاب والاستيعاب وفق نظرة عادلة لا تميز فيها ولا
عنصرية.

ومن أصول ذلك، التمييز بين عروبة اللسان وعروبة الجنس، فإذا كان عمر رضي
الله عنه قد مدح العرب بقوله: "العرب مادة الإسلام"، فإن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسّع من مفهوم العربي، دفعا لتوهم العنصرية والعصبية، ليشمل المسلمَ مطلقاً،
عربياً كان أو غيرَ عربي فقال: "... لَيْسَتْ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ أَحَدِكُمْ بِأَبٍ وَلَا أُمٍّ، وَإِنَّمَا

¹ ياسين عبد السلام، الإحسان 307/1.

² ياسين عبد السلام، الإسلام والحداثة ص25.

³ نفسه ص11.

العربية اللسان، فمن تحدث العربية فهو عربي"¹، وربط بذلك اللغة باللسان لا بالعرق، تمهيدا لربطها بالدين باعتبار العلاقة التكاملية بينهما، فلا قرآن بدون العربية، ولا بقاء للعربية بدون إسلام ! وبهذا المعنى اندمج في عروبة اللسان أضعاف عرب الأنساب... وبهذا أيضا تخلصت اللغة العربية من أي صفة عرقية أو عنصرية. فاللغة العربية ليست لغة خاصة بعرب النسب، ولكنها لغة من تكلم بها واندمج فيها. فمن فعل هذا فهو العربي، أيا كان نسبه وسلالته.²

إن عالمية الدعوة تقتضي نبذ العرقية والعصبية (دعوها فإنها منتنة) وإدماج المسلمين في بيئة لغوية متماسكة وموحدة... هذه البيئة هي التي خلقت لنا جيشا من العلماء من غير العرب عرقا، كان منهم الفارسي والرومي واليوناني والهندي والقبطي والإغريقي والبربري والإفريقي والكردي والحبشي... شاركوا في هذه الحضارة في مجالات كثيرة، سبويه في علوم العربية، والزمخشري في التفسير، والبخاري ومسلم في الحديث، وأبو حنيفة النعمان في الفقه، وأبو إسحاق الإصطخري في الجغرافيا، وطارق بن زياد وصالح الدين الأيوبي ونور الدين محمود وقطر في ميدان الجهاد والقيادات العسكرية...

لكن القوميين العرب انحرفوا بهذه اللغة وجعلوها وثنا يعبد من دون الله على حد تعبير الشيخ ياسين، يقول: "إن اللغة العربية ملك مشترك بيننا وبين القوميين العرب، ملك بين المليار مسلم وبين حفنة فاعلة نشيطة من المثقفين. هؤلاء يريدون أن يبدأوا بعلمنة العربية، يجعلها لغة عامة، وبعضهم يريدونها عامية، تخاطب كل العقول، لا صلة لها بالدين. يريدونها لغة عقل متفتحة على العقلانية الكونية، مندججة فيها. لا يرون لها مستقبلا ما لم تكتسب المرونة من تطبيق المفاهيم الدينية الغبية واعتناق الواقع الإجرائي المتطور. نحن نريد عكس كل هذا. فمن الأداة اللغوية، ومن المواجهة بين المطالبين المتناقضين، ترسم أمامنا إشكالية الصراع بين ثقافات علمانية مادية وبين

¹ الجامع الكبير ، للسيوطي 26740/1.

² انظر: نداء من أجل العربية ص11.

رسالة الإسلام، وتنفّح أمامنا آفاق ليس الإثراء الفعلي للغة فيها أهون من مقاومة تغريب لغتنا وعلمنتها وبترها.¹

فإذا كان الرباط الديني ضعيفا بانسلاخ الناس عن الدين، واجتمع رباطا العرق واللغة فقد يستطيعان حرب الدين ويكونان خطرا عليه، وهذا بالضبط ما يحدث في بلاد العروبة، إذ نرى زعماءها، وفي مقدمتهم النصارى العرب الذين يريدونها قومية ناطقة بلغة الضاد لا بلغة القرآن، ينشدون أمجاد اللغة العربية، ويتيهون هياما بها ويرفعونها مكانا ساميا. إنها نوع وثنية، حيث تستحيل اللغة هي الروح، هي الأصل والفصل، هي الحاضر والمستقبل، هي التاريخ والحقيقة، هي الكل. ولاء العرب القوميون للغة التي نزل بها القرآن كولاثنا للقرآن. نحب هذه اللغة ونعتبرها كما يعتبرونها أجمل اللغات وأشرفها.²

ويستدل الشيخ ببعض دعاة القومية المتعصبين للغة الغافلة عن ذكر الله، من أمثال ساطع الحصري وحسن حنفي، يقول: "وجاء أب الفكر التربوي القومي العربي ساطع الحصري من استانبول المتعصنة، بعد أن نزح منها إلى سوريا، بأفكار مصطفى وحزبه... وركّز الحصري على اللغة العربية واقترحها وثنا يُعبد مستعينا بفكر فيخت الألماني، وبمؤدج القومية الألمانية التي جمعت أشتات الإمارات الألمانية في القرن الماضي في وحدة قوية.³ فتقرأ وتسمع خطابا بألفاظ عربية، لكن بمعان تلغنها لغة القرآن.⁴

وفي سياق تالٍ، يورد رأي حسن حنفي - في الألفاظ الدالة على المعاني المتخلفة التي يجب القضاء عليها- الذي يقول فيه: "واللغة القديمة لغة دينية تسودها ألفاظ تشير إلى موضوعات دينية مثل: دين، ورسول، ومعجزة ونبوة. وهي لغة عاجزة عن

¹ ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص23.

² نفسه ص9.

³ ياسين عبد السلام، الإحسان 448/2.

⁴ ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي ص364.

إيصال مضمونها للعصر الحاضر". وفي صفحة 99 يقترح الفيلسوف المجدد إلغاء حتى كلمة إسلام: "لفظ "التحرر" هو اللفظ الجديد الذي يعبر عن مضمون "الإسلام" أكثر من اللفظ القديم".

يفعل هذا دعاة الإسلام الفكري الثقافي ويكتبونه دون إدراك لخطورة ما يترتب على خطابهم الممسوح من ذكر الله من سيئ الآثار. يكتبون بهذه اللغة المشتركة الثقافية لأنهم همهم، الصادق لاشك، منصرف إلى الجري لتلافي التخلف الشنيع الذي تعاني منه الأمة في ميادين المعرفة الكونية والعلوم والصناعات. أصبحت هذه اللغة الغافلة عن الله المغفلة عنه أسلوباً مألوفاً، فينشأ عليها الخلف بعد السلف في أحضان إسلام أجوف منبهر مأخوذ، يولي وجهه نحو الكون ومن فيه وما فيه إلا أوقاتاً مخصوصة مستثناة يولي وجهه فيها نحو بيت الله لينثر الصلاة نقرأ، أو يوليها المصحف ليقراً آيات الله المبينة كل المبينة للغة الفكر والحضارة والبديل.¹

كما يعرج الشيخ على عربية النصارى اليسوعيين التي جنت على العربية، يقول: "جنت عربية النصارى العرب على لغة القرآن. والقومية جامعة، واللايكية جامعة، والعربية العجمية المصحفة المنكرة جامعة. لا نحوها نحو القرآن، ولا صرفها ولا اشتقاقها ولا مبناها ولا معناها.

وما تبع الجهود اليسوعيّ النصرانيّ في مجامع اللغة العربية وأكاديميات اللغة العربية لم يجد كثيراً ولا قليلاً عن المقصد التنصيري. وها هي بين أيدينا لغة عربية عصرية لائكية في صحف الإعلام والمجلات المصورة والإذاعات والتلفزيونات. لغة ركيكة المباني، مترجمة المعاني، فاسدة النحو، قعيدة الصرف، ما بينها وبين لغة القرآن المبينة من قرابة إلا صلة اللفظ والحرف. لغة عصرية، جسم تسكنه روح دخيلة تتململ لائكيته وتتخبّط المسكون، فلا تسمع من همس العربية إلا أننا وحيناً إلى سالف عزها، يوم كانت

¹ ياسين عبد السلام، الإحسان 307/1.

لغة الدين والدنيا، لا ينفصل الدين والدنيا شقين وتعبيرين.¹
وقد سرى هذا التطبع منذ زمان حتى إنك لتقرأ من "إنتاجات" السوق ما تقرأ، فلا تجد ذكرا لله ولا للرسول ولا للآخرة والجنة والنار والحق والباطل.²
كما لا يرضى مصطلح قطر أن ينسّق مع مصطلح قطر، ولا أن يتراضى معهد مع معهد، لما عُرفَ عن العُربان، والدول القومية للعربان، من تطبّع على العصبية الضيقة. وتذهب لغة العربان ضحية للتمزّق السياسي. وهكذا نرى السياسة الممزّقة تعض على اللغة الممزّقة كما يعض الحنش على ذنبه في دائرة مُفرّعة جوفاء جذباء. فلا الوحدة خدمت اللغة، ولا اللغة قربت الشقّة على وحدة. وتعود صُدورُ كلامنا على أعجازهِ : الوحدة تريد عدلا، والعدل يريد تنمية، والتنمية تريد تعليما وعلوما، وتوطنين كل ذلك يريد حكما شوريا، وأساس كل ذلك الوحدة اللغوية.³

في هذا الخضم، يصرح بما تطمع إليه الأمة المسلمة وهو "مقاومة المدّ الانشطاري القومي لنتجمع عربا وبربرا تحت راية الإسلام ولغة القرآن، غير ناقضين عهد الله ولا عاقين فضل العرب المسلمين وفضل البربر المسلمين أجداد المغاربة وأعمامهم وأخوانهم وأسلافهم. هوية انشطارية تقسم الفرد قسمين متشاكسين متداخلين متصالحين متنافيين : لغة الأجداد تُرجّع أصداء الثقافة الأجنبية الوثنية.⁴

الحرب على العربية، مظاهرها وأهدافها:

استفحلت اللوثة والخلط على اللسان العربي وعلى كل لسان ينطق بالإسلام. بل هوجمت العربية وهوجمت لغات المسلمين، ومنها الأمازيغية، لتقطع منها الأوداج وتخرّ منها الأطراف وتقطع صلاتها باللغة القرآنية. أمر الطاغية مصطفى كمال أن تكتب

¹ ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص 87 .

² ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين ص 53.

³ ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص 128 .

⁴ نفسه ص 214.

التركية بالحرف الإفرنجي، ففصلها عن لغة القرآن لَتُنَشَأَ أجيالاً لا تستطيعُ تقرأ في المصحف.¹

وظَوَّرَ الفرنسيون في عصرنا نظام حروف إفرنجية لتعلّم بها الأمازيغية في مدارس الجزائر لنفس الهدف الطاغوتي. ولكن بعثنا من مَرَقدها حروف "تِفْنَاغ"، وكتبنا بها أمازيغية الثقافة السياسية بالمغرب، فلن نَعُدُّوْ أن نساهم في استئصال العروق التي تصل العربي والعجمي بالمصحف. وبذلك يَضُمُّ الثوب اللغوي في بلاد المسلمين سبعين رقعة من ألوان واختلاف، كلها عاجزة، كلها مُلَوَّثة، كلها عالية، كلها تحتكم إلى اللغة السيدة. عُجِّزَتِ اللغة العربية وخذلها أهلها. ما هي عَجَزَتِ وهي القوية على حمل رسالة الله، ولا هي ضاقت وهي الواسعة، ولا هي أجذبت وهي الخصبية.²

وقد وردت العبارة في قصيدة لشاعر العروبة الكبير حافظ إبراهيم رحمه الله، نظمها، وحبرها على لسان اللغة العربية تشكو مما أصابها من تلوثها بلغة الإفرنج حتى عجزت عن الإعراب والتعبير عن دقائق المعاني وجديدات المخترعات التقنية. نظمها رحمه الله منذ أكثر من تسعين عاما. ولو اطلع على ما آلت إليه العروفونية من انحلال في المباني والمعاني لهاله المشهد. قال رحمه الله:

سَرَّتْ لُوثَةُ الْإِفْرَنْجِ فِي كَمَا سَرَى لُعَابُ الْأَفَاعِي فِي مَسِيلِ فُرَاتِ
فجاءت كَثُوبٌ ضَمَّ سَبْعِينَ رُقْعَةً مُشَكَّلَةً الْأَلْوَانِ مُخْتَلِفَاتِ
وتتحسر العربية لما تَرَى من ضعفها وعجزها وقدرة غيرها وقوته، فيقول على لسانها:

أَرَى لِرِجَالِ الْغَرْبِ عَزّاً وَمَنْعَةً وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بَعَزَ لُغَاتِ

¹ نفسه ص 85 .

² ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص126.

أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ تَفَنُّنًا فَيَا لَيْتَكُمْ تَأْتُونَ بِالْكَلِمَاتِ !¹

انجلى الاستعمار القديم، وبقي استعمارُ اللغة، لغة اللسان، ولُغة التفكير، ولغة المعتقد...² ونشطت الدعوة إلى إثارة اللهجات المحلية، وتشجيع العاميات، وفسح المجال أمام اللغات الاستعمارية ... مع ما صاحب ذلك من احتقار للعربية، وتجنيد لأبناء الجلدة وخلفاء الاستعمار حيث "احتل المستعمرون المواقع الحساسة في أجهزة الدولة، وأصبحت لهم سلطة التوجيه والقرار، فظهر العداء للتعريب وتنوعت أساليب محاربتة، وانتشرت اللغات الأجنبية بصورة مخيفة، وتم إبعاد المعرّبين عن مراكز القرار، وما يزال بعض المستعمرين من أبناء هذه الأمة لا ينتمون إلى الوطن إلا بالجنسية، أجسامهم في الوطن، وولأؤهم وعقولهم وأرواحهم خارج الوطن."³

وقد تطرق الشيخ لقضيتين في غاية الأهمية، اللغات الأجنبية، واللغة الأمازيغية، وبيّن موقفه منهما بوضوح كامل:

اللغات الأجنبية وضرات العربية:

عداوة الاستعمار للغة العربية عداوة مستحكمة، تضرر حقدا دفينا لثقافة العرب وقرآنهم وسائر قيمهم. فقد كانت العربية إلى عهد قريب أداة لمقارعة الاستعمار، حتى عدّ الفرنسي جاك بيرك، أن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قوياً في بقاء الشعوب العربية.⁴

¹ نفسه ص 125 .

² ياسين عبد السلام، حوار الماضي والمستقبل ص 35

³ ينظر عباس ارحيلة: تعريب التعليم العالي وتيار الفرنكوفونية بالمغرب ص 27.

⁴ ينظر: أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن ص 304.

ولذلك حارب الاستعمار العربية و جعل لها في المحافل الأُمّية مريضاً إلى مؤخرّة اللغات العلمية المعتمدة كالإنجليزية والصينية والروسية والفرنسية. ذلك لأن الناطقين بها مهجنة جرائدية إعلامية لهم كم سياسي، وهم في قبضة التبعية السياسية كما تليق بالكم المشتت، وهم في قبضة التبعية الثقافية لما أضعوا من إسلاميتهم.¹

واكتمل الصدع في تكوين تلامذة الطاحون الذين يمثلون استعماراً جديداً

هو أُنخبث وألبث، استعماراً مُقنَّعاً، لأن المستعمر من بني جلدتنا ينطق بلغتنا. ذلك أن اللّغة العربيّة الصافية في الخطاب القرآني، الحيّة ب حياة القرآن ومفاهيم القرآن، سكنتها شياطينُ اللغة الأجنبية المبتورة أصلاً، الباترة القاطعة وظيفه.²

لقد نشأ تقدير وإعجاب وموالاتة للغة المستعمر، ورافقه تغييب للقرآن، وللغة القرآن... حتى انفصلنا عن أصولنا ووصلتنا واصلة اللغة بهم، تابعين وهم أسياد، متعلمين وهم أساتذة، سامعين ولهم الكلمة.³

وقد تساءل الشيخ على لسان العلامة المختار السوسي - متحسراً - عن السبب الذي جعل المغاربة ينشرون الفرنسية في ربوع الوطن، وفي منطقة سوس خزان العربية والقرآن بالمغرب: لماذا نقوم بنشر اللغة الأجنبية (الفرنسية) لأبنائنا في سوس بعد أن كانت هذه اللغة متقلصة في عهد الاستعمار؟ أليس نشرها في تلك الأصقاع سيكون على حساب اللغة العربية التي كان لها شأن وأي شأن في مَدُننا وقرانا السوسية، فنبدها الآن باللغة الأعجمية؟ ما هي مصلحة أبنائنا الصغار في هذه الازدواجية التي ستضيغ عليهم معرفة لغتهم، وتقلل من اهتمامهم بدراسة دينهم وقرآنهم؟"⁴

ويورد الشيخ ياسين مواقف علماء الأمة من هذا الغزو اللغوي بعد الاستقلال،

¹ نفسه ص161.

² ياسين عبد السلام، حوار الماضي والمستقبل ص149.

³ ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين ص158.

⁴ نفسه ص100.

يتساءل المختار السوسي: "لماذا نعمل في عهد الاستقلال ما لم تستطع فرنسا أن تقوم به في عهد الاستعمار؟ لماذا نقوم بنشر اللغة الأجنبية لأبنائنا في سوس بعد أن كانت هذه اللغة متقلصة في عهد الاستعمار؟"¹

قلت: تأمُّ وتساؤلُ نجدُهما بأسلوبٍ آخرٍ وبحرارةٍ مُحرقةٍ فيما اشتكى منه الزعيم الفاسي في كتابه الشهادةِ المهمَّ جداً "دفاع عن الشريعة". ندد السوسي بسياسة الازدواجية المبكِّرة في التعلم، وندد الفاسي وشكا بثه وحزنه ولوعته بمَن زرعوا بذور الشُّقاقِ على اللغة ومحمولها القرآني الديني: النخبة المغربية صنعها الاستعمار في مدارس الاستعمار. اشتكى الفقيه السوسي رحمه الله إلى أصدقائه ما لا يمكن أن يصرح به من بَحْثِهِ الرسمي. واشتكى وتحرَّق الزعيم الفاسي من فعلات من همَّشوه وانحرفوا عن مقصده الإسلامي، ثم انشقوا عن حزبه ليبقى رمزا متألما في علياء الرايات الحفاقة ترفعها أيدي مفتقرة إلى رأسمال رمزي.²

ويقول في موضع آخر: "ذلك ما أغضب أستاذنا السوسي رحمه الله، وما كره إليه الأكف الممتدة إلى اللغى السمجحات."³

غضب المختار من لغة يُرضعونها الصبيان في عُقر بيتٍ وقربة كانت مدرسة خرَّجت علماء وأدباء منهم المختار نفسه. ويُعبر شاعرنا الفحل الفقيه العلامة الصالح فيقول من قصيدة مدح فيها لغته الحبيبة:

مُدُّ أَكْفًا قَطَعَ اللهُ راحها إلى غيرها من اللغى السمجحات

انقلبت الموازين، واعتكست القيم، وعكف المثقف السياسي الأمازيغي والسياسي المثقف الشلحي على لغة الأجداد. ضرةٌ وضرائرُ أفحمت في بيت دين المسلمين العجم. ونكصت الشياطين اللغوية على أعقابها من حضرة اللغة السيِّدة لغة

¹ ياسين عبد السلام، حوار الماضي والمستقبل ص 291.

² ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص 271.

³ نفسه ص 231.

القرآن، كما يَنكُص على عَقِيهِ شيطان الجن عن سماع أذان الصلاة. اصطدمت في ذهن بعض أبناء العجم والعرب وبناتهم ثقافةً واردةً جاهليَّة المصدر، جاءنا بها الاستعمار الاستحمار .

زَحَزَحَتِ الثقافةُ الفرنسيةُ العالميةُ لغةَ القرآن عن مكان الصدارة، وتغلغلت في النفوس والعقول قيُمها ورموزها. حتى إذا تمكَّنت الثقافةُ وانسحب المثقَّفُ المستحمرُّ حمل رايةَ التمرد على العربية وقرأها وعلوها بعضُ أبناء العرب وبناتهم، ثُمَّ نَفَرَ لمساعدتهم في حربهم المقدسة ضد العربية بعض أبناء العجم وبناتهم. مسجِدُ ضرارٍ وكُفْر هو معبد الإلحادِ العربيِّ اللسان والعجميِّ. وضرةٌ هي اللغةُ الغازيةُ.¹

تري، هل يتسع وقتُ المسلم الناشئِ والمسلمة، ووقت المجتهدِ العالمِ الفقيه، لتعلِّم القرآن، وإتقان لغةِ الكتاب المنزَّل، إن دفعنا لغةَ منافسةٍ للغة القرآن في بيتِ التعليم والتربية، وأقحمانها في وقت المعلم والمتعلم، وزاحمنا لغةَ القرآن بلغة ضرة، ولغاتِ ضراتٍ، كلُّ منها تنافس وتقاتل على الفوز بالحظوة في النفوس، والمكانة الأولى في تفكير العقول، والتأثير الأبلغ في صبغ الأخلاق، وتوجيه السلوك، وطَبَع حياة الأفراد والمجتمَع بطابعها؟²

ويختتم الشيخ حديثه متفائلاً: " وقد مضى إن شاء الله عهد كان ذراري المسلمين فيه يعتز بعضهم بتقليد الغربي، والرطانة بلغته، والظهور إلى جنبه كالند، ومشاركته في فكره التقدمي، والانتصار والترويج له بيننا. أقول مضى بلفظ الماضي استبشاراً. وإلا فالنموذج الجاهلي ضارب أطنابه لا يزال بين الفئة المغربية من ذاررينا. ولئن كان من موضات الجاهلية الحديث عن ذاتية وأصالة القوميات، والألوان واللغات، فما هي إلا نكبة من نكبات التغريب. لأن تلك العبارات إنما تعني إنكار الدين والرجوع إلى وثنية

¹ نفسه ص 82.

² ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي 80.

العصبية للعرق واللون واللغة والقومية...¹ ويدعو إلى التسامي فوق هذه القاذورات العصبية.²

يضاف إلى تلك الحرب، الدعوة إلى العامية والرطانة، رطانة الجرائد، يقول الشيخ: "رَطَنْتُ الجرائد بلغة هجينة ملوثة منذ عهد شاعرنا حافظ رحمه الله. قال على لسان العربية:

أرى كلَّ يومٍ بالجرائد مَرَّلَقاً من الموتِ يُدْنِينِي بغيرِ أناة

كانت للجرائد في عهد حافظ وسائلٌ بدائية لسفك دماء اللغة العربية. والإعلام المحمُول على متن الكواكب الصناعية والتقنيات الرقمية في عصرنا وسائلٌ فتكٍ تهددُ حتى العروبونية المهجَّنة المدجَّنة بانقراض وموت وفناء. وذلك تعجيزٌ للغة العربية في ميادين الفصاحة، والبيان، وتبليغ أخبار الدنيا، والتعبير عن معاني الدنيا. والقرآن محفوظ، محفوظة فيه لغته.³

فاللغة العربية، تلك الصافية المتينة لا لغة الجرائد، هي الآلة والوسيلة لفهم ما أنزل علينا بلسان عربي مبين. فلا بيان إلا بها.⁴

العربية واللغة الأمازيغية والصراع المفتعل:

لقد أصبح معلوماً أن من مطالب الحركة الأمازيغية الملحة، دسرة الأمازيغية واعتبارها لغة رسمية وجعلها متساوية مع اللغة العربية في جميع المجالات، ومدّها بكل الإمكانيات الضرورية لتطويرها، وإلزام الدولة بالتعامل بالأمازيغية والعمل على إدماجها في التعليم، والإعلام، والإدارة، والقضاء، وفي مختلف المرافق العمومية... انقلبت الموازين، واعتكست القِيَم، وعكف المثقف السياسي الأمازيغي والسياسي

¹ ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي ص 248.

² نفسه ص 248.

³ نفسه ص 127.

⁴ ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص 203.

المثقف الشلحي على لغة الأجداد. ضرةٌ وضرائرُ أفحمتُ في بيتِ دينِ المسلمين العجم. ونكصتُ الشياطينُ اللغوية على أعقابها من حضرة اللغة السيِّدة لغة القرآن، كما ينكص على عقبيه شيطان الجن عن سماع أذان الصلاة.

يُعرض الشيخ ياسين عن هذه الأقاويل، ولا يدخل في نقاشات هامشية، ولكن يكتبني بالتذكير في حوارهِ الهادئ مع "صديق أمازيغي" بشغف الأمازيغيين بالقرآن والعربية، قائلاً: "كان البربرُ الأمازيغُ، ولا يزالون وهم العجم، يُسلمون أنجب أولادهم لفقهِه المسجد وحافظ القرية ليتعلم القرآن. كان "الطالب" حافظُ القرآن، مُتقِنُ اللَّفْظِ وإن كان المعنى بعيداً عنه لجهله بالعربية، يُحظي بمكانة خاصة في المجتمع البربري، وباحترام. وتسمح ظروفُ الأسرة وقابليات الولدِ -والبنتِ أيضاً في بعض الجهاتِ- فيُبعثُ الشاب "الطالب" الحافظُ لفظ القرآن إلى مدرسة القبيلة، ويحضُرُ "الطالبة" الفقيهاتُ في بلدتها، والفقهاءُ من أقرابها. ليتعلم "الطالب" "العلم" بلغة العلم وهي العربية لغة القرآن. ويومُ الفخر والعزِّ هو ذلك اليومُ الذي ينبعُ فيه عالم وعالمة.¹

وقد أحصى أستاذنا المختار رحمه الله أربعمئة مدرسة شيدت في سوس منذ قرون سحيقة، منها ما اندثر، ومنها ما لا يزال منارا للعلم والتقوى والصلاح واللغة العربية. ما كان الأمازيغ والريفيون والشلوح وبنو يزناسن وسائر البرابر يعرفون لأنفسهم هوية وتاريخاً خارج الرابطة الإسلامية قبل أن تطيش طائشة النعرة الأمازيغية.²

وكان للمختار السوسي ولسلفه من العلماء الشلوح والأمازيغ غيرة شديدة على لغة القرآن لأن غيرتهم على العربية التي أنزل بها القرآن من غيرتهم على الدين الذي علمه الرسول المبعوث بالقرآن. كانت لهم غيرة على العربية ضاعفها وثبتتها أن لسانهم الفطريّ أجنبي عن اللغة العربية. ثبت الغيرة وضاعفها، لم يوهنها ولم يُبرِّز الإعراض

¹ نفسه ص 80.

² نفسه ص 228.

عنها والنَّفَحَ في نَعْرَة لغة الأجداد الجاهليين. يقول أستاذنا السوسي رحمه الله في كتابه: "سوس العاملة" الصفحة 37: "السوسيون أجنب عن لغة الضاد."¹

يقول الشيخ ياسين: "وكان المختار السوسي يرى أن "سوس" يجب أن تبقى حصنا حصينا للغة العربية والعلوم الإسلامية، تُدرس فيها جميع الفنون المتعلقة بها، سواء منها العلوم الأدبية على اختلافها وتَنَوُّعها، أو العلوم الشرعية على تعدُّد مناحيها الفقهية والحديثية والتفسيرية". قال: "لقد كان يريد أن تتمتع "سوس" بمدارسٍ مثل المدارس التي كانت في عهدهما السابق، فيتخرج منها أمثال الشخصيات التي ترجم لها في كتابه الضخم "المعسول" و"سوس العاملة" وغيرهما."²

ويترك بمؤلفاته الأدبية التاريخية الحافلة بصماتٍ أديبٍ مُرَبِّ غيورٍ على الإسلام ولغة القرآن غيرة أمثاله من عظماء الأمة. سابقت سلاهب قريحته شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله، فيعارض قصيدته على لسان اللغة العربية، يقول رحمه الله:

بأيِّ خطابٍ أم بأيِّ عِظَاتٍ أَوْجُهُ وَجِهَ الشَّعْبِ شَطْرَ لِعَاتِي³

ولكي نظهر إخلاصنا للوننا المحلي ونبرهن على تمسكنا بجنسيتنا ووطنيتنا، سنعلن عاليا أننا مخلصون للغتنا الوطنية مهما بلغت فرنكفونيتنا وضحالة رصيدنا من اللغة العربية.⁴

وفي سياق آخر، يستدل بأقوال ومواقف للأستاذ محمد شفيق، يقول: " يكتب الأستاذ محمد شفيق صديق العربية ودارسُ المصحف أن الأمازيغية كما يتصور ثقافتها وسياسة ثقافتها لا يريد لها ضرة للغة القرآن. هو تعلم العربية وعلمها بجهد وشغف، ففتحت له الفهم في كتاب الله، وهده التأمل في كتاب الله إلى الإيمان بالله.

¹ نفسه ص 233.

² نفسه ص 270.

³ نفسه ص 277.

⁴ ياسين عبد السلام، الإسلام والحداثة ص 109.

ثم يتساءل الشيخ: " لكن ما بأل اللغة الأمازيغية يُراد لها أن تُرسم في الدستور لغة وطنية ثانية؟ ما بأل الثقافة الأمازيغية تغارُ من العربية وتنازعها على أوقات الإعلام الرسمي في الإذاعة والتلفزيون؟ أي إعلام؟ وأي تلفزيون؟ لو كانت اللغة الأمازيغية تُساهم في إنكار المنكر في وسائل الإعلام، وتقوّم المعوج، وتغضب على الفسوق والفجور المسموع المرئي، وتعلم الدين والفضيلة، لشفعت لها نيتها!¹ لكنّ الأمازيغية، هذه الثقافة الأصيلة في المغرب العريقة الآباء والأجداد لا تقل ميوعةً من لغة الفجور والفسوق العربية في إذاعتنا وتلفزيوننا. هذه الثقافة المائعة المميعة ضرّةً للغة القرآن الحاملة رسالة القرآن. سواءً هي الأمازيغية الهازجة الراقصة واللغة العربية اللفظ الماجنة المحمول في الضرار. ما هما إلا خادمتان للشدّة العلية لغة الأسياد المثقفين المستحمرين.²

يسجل الشيخ ياسين، بكل وضوح، موقفه من اللغة الأمازيغية، فهي لغة وطنية ولغة إسلامية، ومكائنها بماذين الاعتبارين محفوظة، لكن يجب ألا تتحول إلى منافس وضرة وعدو للغة القرآن، لأنها حينئذ ستضع نفسها في خدمة لغة الأسياد لغة الاستعمار، وستفقد شعبيتها وتسيء إلى رصيدها التاريخي المشرق.

دور الأمم في خدمة لغاتها، ومستقبل العربية:

يقول الشيخ: " لولا الوهن في الدين ما هانت الحسنة العربية، وما طمّع طامع أن يُلجئها إلى حط الرجال عند عتبات الهبال. ها هم اليهود، وهم حفنة من الناس، اضطهدت لغتهم العبرية لغات الأمم قرونا طويلة، فلما بعثت فيهم العقيدة الصهيونية منذ قرن من الزمان الأمل في حياة جديدة تلزمها لغة قومية متجددة، خلد اليهود لغتهم، وطوروها، وأحقوقها باللغات الحية. آمنوا بمستقبل يهودي فأمنوا بمقومات حضور في العالم يهودي، ومقوّم المقومات: اللغة.³

¹ نفسه ص 83.

² ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي 83.

³ نفسه ص 86.

الحكمة أن نتعجب كيف حافظت اليابان والصين وكوريا على كتابتها التي تنكر بتاتا مبدأ بديهيها عند العالمين هو الأبجدية. أكثر العالمين تفوقا احتفظوا بكتابتهم المستغلقة إلا عن عبقريتهم. مجد هذه اللغة أنها أصيلة. ومجدهم أن لهم لغة تثبت خصوصيتهم، وتثبت لهم نسبا ثقافيا بين الأصلاء واللقطاء.

ما طرحوها لصعوبتها، وكيف يطرح القوم جزءا من ماهيتهم؟ المبتدئ الصيني يجب أن يتعلم بضعة آلاف شكل، والمثقف عشرات آلاف، كل شكل بمعنى، لا كالتركيب الأبجدي لسائر لغات الأرض. مجد العرب، بل مجد المسلمين، أين هو منذ أهملوا اللغة الشريفة لغة القرآن؟

لم يستبدلوا بأفكارهم المصورة المرسومة في أشكال كخربشة الجن الحرف الأبجدي الأوربي كما فعل رائد المحدثين مصطفى كمال التركي.¹

لقد ظلت العربية مهيمنة على أكبر رقعة من العالم الإسلامي، وعلى أعظم مجموعة من العقول البشرية... وكانت لغة التأليف والحكمة والفلسفة، ولغة البحث العلمي والتواصل الحضاري... وقد أخفقت الحكومات الجبارة من اقتلاع هذا الحب من نفوس شعوبها المسلمة وقطع صلتها بها، فقد منعت الحكومة التركية الأذان باللغة العربية أكثر من ربع قرن، وغيرت شعوب كتابتها لغتها بالحروف اللاتينية، ومنعت استعمال العربية وغيرت أسماء الشوارع... لكنها لم تستطع تغيير محبة شعوبها للعربية.

إن استعمال القانون الوضعي بدل الشريعة، اتجه بالوضع اللغوي وجهة أخرى امتازت فيها اللغة الأجنبية إلى جانب اللهجات المحلية، إضافة إلى انتشار فكرة القومية القطرية وعناية الشعوب العربية بعامياتها وتشجيع التواصل بها، يضاف إلى ذلك ما نال القرآن من ترجمات محرفة، فلم تعد البلدان الإسلامية غير العربية في حاجة إلى العربية لفهم القرآن الكريم، وقد بدأت تركيا في العودة إلى لغتها، فصارت العربية بمثابة اللغة الأجنبية، وكذلك الأمر في إيران التي طغت عليها موجة اللغة الوطنية وحلت الفارسية

¹ ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين ص 199.

مكان العربية، وفي باكستان كان التفوق للغة الإنجليزية وصار وضع العربية في تدهور مستمر، ووقع التحريض على كتابة اللغات المحلية كالأردية والبنغالية، وقد تحمل وزر هذه الدعوات الطبقة المثقفة ثقافة أجنبية عصرية.¹

والعرب المسلمون - الأمناء مع العجم المسلمين على لغة القرآن - ما فتئوا منذ قرنين يُعالجون اللسان العربي ليطاوع التعبير العصري عن الواقع العصري. بل الذي عالج اللسان العربي منذ قرنين النصارى العرب قبل المسلمين من عرب وعجم. عالج الآباء اليسوعيون في لبنان، ووطنوا المطبعة والطباعة، وحدثوا معجمات اللغة العربية، وأحدثوا معجمات، وطبعوا كتب تراث، وتاريخ عرب، وشعر عرب.²

ولعودة العربية إلى التداول لا بد من صياغة للعلوم بلغة القرآن لا بد منها إن طمعنا في غاية الإنسان والعالم، وطبعها بطابع القرآن وصياغته. تبليغ رسالة لا إكراها وبطشا. المتسكع على موائد الآخرين الضعيف المتطفل أني تسمع كلمته - وقد يعوق السمع منا ومن لغتنا العربية، لغة المسلمين، متقلصة في نطاق قوميتها وعروبيتها، وتخلفها العلمي.

لذلك فالتحدث بلغة القرآن في عصر ساد فيه حديث الفلسفة والثقافة والفن واللذة والمنفعة و"السعادة" والمتعة والمردودية وتوابعها مدخل صعب. ولذلك حق على الإسلاميين أن يلحوا على ما كان مسكوتا عنه لبداهته في كلام سلفنا العلماء المؤمنين. وحق أن يتميزوا في العبارة، يقاتلون في صف الكلم القرآنية السنوية كل عوامل التلوث المعرفي.³

ليس المشكل هو إسعاف المتعلم والمفكر بالعربية بالكلمات اللازمة، لكن المشكل أن تطور أداة للتعبير عن العصر دون أن نضيع بعيدا عن لغة

¹ التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ص 602 (بتصرف)

² ياسين عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي ص 86.

³ ياسين عبد السلام، العدل : الإسلاميون والحكم ص 147.

القرآن، أن نسعف العقل بأداة إجرائية مع تقوية لغة القلب.¹ إن ذلك يتم "بالعودة إلى لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا، إن لغتنا لهي مستودع تراثنا، فإذا ما وعينا ما تضمنت كلماتها من حدس، بلغنا ما بلغ أجدادنا من عزة وسؤدد. مثل كلمات لغتنا كمثل البذر من النبات. تضرر فيها المعاني ضمور الحياة في البذر... فقد أصبح البعث عندنا العودة إلى ينبوع، إلى الحدس المتضمن في الكلمات، كالعذالة والنظام والشعر والجمال..."²

كما يجب اقتحام عالم الترجمة للنهوض بالعربية، يقول الشيخ ياسين: "ولا مناص من اقتحام هذه العقبة - يعني عقبة الترجمة - لتحدث للناس بما يفهمون. حتى إذا عز الإسلام، وانتصرت لغة القرآن، وصارت لنا الأشياء، في ملكنا ومن صنعنا وتحت سيادتنا، عبرنا بالفصيح الأصيل وذهبت الرطانة المهجينة بذهاب التبعية. بيد أننا لن نستغني أحياناً عن كشف أصول بعض المصطلحات العصرية وإعادة سيرها على أعقابها لنراها ترد علينا ونحن على علم بجهولها وما تحملها، فإن المستوردين من غيرنا، خاصة المثقفين الأكاديميين المزدوجي الثقافة أو المثليتها والمربعيها، إنما يلقفون هذه الألفاظ جزافاً... والمثقف المعاصر المشغوف بالدخول في منتدى "الفكر الكوني العالمي" لن يفهم عنك حتى تأتيه بألفاظه "المكرسة". ها أنت ترى الفكر المترجم يترصدنا في كل جملة."³

توجيهات ختامية من أقوال الشيخ في موضوع اللغة وهوية الأمة:

يقول الشيخ: "إن وجودنا المعنوي، وعزتنا، ومستقبلنا، رهناً بأن يعاد لهذه اللغة مجدها وسيادتها. وسنبقى صُماً عن معنى ديننا إن لم نُثَقِّن لغة القرآن، بُكْماً عن تبليغ دعوة الله إن اخترنا رطانة الأعجم على اللسان العربي المبين، عاجزين

¹ ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص22.

² نفسه ص 10.

³ ياسين، عبد السلام، مقدمات في المنهاج، ط 1، 1989، ص 4.

كسِيحِينَ عن استنقاذ العلوم الصناعية الكونية وتوطئتها إن لم تكن لغتنا واحدة قويةً فصيحةً في كل الميادين. ولقد كادت العربية بما همشها وعادها المتفرنجون أن تصبح لغة كهنوتية في الكتب الفقهية وعلى منابر الوعظ الوديع المسلم، أو لغة صحافة يقودها من أنفها أولاد النصارى العرب إلى الهجانة والرطانة. لا وجود للعربية، و لا يكاد، في مختبرات العلوم، وملتقيات الخبراء، ودروس التخصص العالي.¹

كما أن جيشان الانفعال القومي العربي، وهذه الحساسية الشديدة، والاعتزاز والفخر بالعربية ليست بالباعث الذي يكفي لإشعال قومة تستنقد العربية من وهدة التخلف العلمي. إن كانت الأقوام الأوربية استقلت بهذه العلوم العصرية مع ضيق نطاقها، وقلة أهلها بدافع الاعتزاز القومي، فالعربية التي يتشرف بالنطق بها تلاوة في المصحف مئات الملايين، لا يصح إلا أن تحتل مكانة عالمية في مقدمة اللغات الكبرى.²

سيبقى المسلمون لقطاع متطفلين في عالم العلوم والصنائع مادام تعليمهم لا يرتكز على لغة القرآن في المجالين التربوي القلبي والتعليمي الفكري، مسايرا هذا لذلك، موصولاً به مستقياً من مبناه ولفظه ومعناه. مقدمة لا بد منها إن أردنا أن نطوع عالم الأشياء لمقاصد الإسلام.³

ولا يتم التخلص من التبعية إلا بوحدة إسلامية لغتها المشتركة لغة القرآن، لا عوض عن هذا إلا التشرذم في اللهجات القومية. فيا قومنا العرب ! لم تريدون لغة عظيمة فقط، لا تفكرون، حتى تقليداً، في نشر لغتكم في العالم لتناطح اللغات القومية؟ لم تحرصون على التزم بعروبتكم وفي عروبتكم في الوقت الذي انكشفت فيه علمانية

¹ ياسين عبد السلام، إمامة الأمة ص 185.

² ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين ص 159.

³ ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص 160.

النصارى القومية المعلنة المطلوبة منذ قرن عن انتماء طائفي لنصارى أوروبا ويهود الغزو؟
1

هذه اللغة العربية التي حملت القرآن، وحملت السنة، وحملت علوم المسلمين، وحملت حضارة عظيمة، هل بوسعها أن تحمل لمستقبل الأمة حضارة اليوم والغد وما يكوّن هذه الحضارة من مضمون تقني علمي مادي؟ هل تبلغ هذه اللغة الشريفة اليوم وغدا رسالة تحرير الإنسان كما بلغت من قبل؟

ما دام القرآن بين ظهرانينا لم يرفع، فرسالة التحرير محمولة، واقتحام العقبة سماع مطلوب، والاستجابة له منشودة. على السماع والاستجابة مدار هذا الكتاب. إن هذه اللغة الشريفة المشرفة بحمل القرآن وصحته اكتسبت روحانية وقدرة على غزو القلوب ووصف مشاعر الإيمان ونبضات الإحسان. تلك الروحانية وتلك القدرة لا نجدها، وأنى توجد، في أي لغة غيرها؟!²

¹ نفسه ص 160.

² ياسين عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية ص 22.

خاتمة

بهذه التوجيهات العلمية العميقة، المشحونة بالدلالات والإشارات، ننهي هذه الرحلة المباركة في كتابات الشيخ ياسين، في أساس من أسس الهوية الإسلامية: اللغة القرآنية، وقد اتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك تصور متقدم، وحرص كبير على لغة القرآن الكريم تعليماً وتعلماً ونشراً وخدمة وتطويراً...

إن إنتاج المعرفة بجميع فروعها، وتنميتها واستغلالها وتداولها وتخزينها... كلها عمليات تستلزم تجانس لغة المجتمع ووحدها... إن التعدد اللغوي - كما يقول الخبير اللغوي محمد الأوراعي - يقلل من تواصل العشائر المؤسسة لغوياً، ويقوي طابعها الانعلاقي، فيصعب التصاهر والتشاقف، وتجزر الشخصية العشائرية، فينتقى من عناصر الهوية الوطنية ما يتماشى والنزعة القبلية، وفي هذا مفسدة ظاهرة، وتعثر في طريق التنمية الحقيقية للمجتمع والإنسان¹

ذلك أن الارتقاء بالإنسان المسلم يرادفه الارتقاء بلغته القرآنية الفطرية ضرورةً، ليصير قادراً على استساعة المعرفة المعاصرة بمفهومها الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي بلسانه لا بألسنة غيره، كما يحتاج الإنسان المسلم إلى أداة تواصل موحدة ومنظمة، ويحتاج إلى درجة عالية من التعليم والكفاءة، التي تؤهله للاستخلاف في الأرض.²

ولنا في حرص الفرنسيين والإنجليز والألمان واليهود وباقي شعوب الأرض، على لغاتهم ووحدهم، الدرس والمثل، ولنا في جهود المخلصين من العرب مؤسساتٍ وأفراداً القدوة والنبراس، من أجل لغة واعدة وجذابة ورائجة في سوق اللغات.

¹ المرجع السابق ص 12.

² ينظر: فِطْرَةُ الدِّفَاعِ عَنِ اللُّغَةِ الأُمِّ بَيْنَ التَّفْعِيلِ وَالتَّعْطِيلِ (كتاب مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر، المدينة المنورة، مطابع الجامعة الإسلامية) ج 7، ص 63. رشيد بلحبيب

لائحة المراجع

1. بلحبيب، رشيد، فِطْرَةُ الدِّفَاعِ عَنِ اللُّغَةِ الأُمِّ بَيْنَ التَّفْعِيلِ والتَّعْطِيلِ كتاب مؤتمري اللغة العربية ومواكبة العصر، المدينة المنورة، مطابع الجامعة الإسلامية.
2. بلحبيب، رشيد، البربر بين الشريعة والعرف مجلة المنعطف، العدد5 سنة 1992م - المغرب.
3. بلحبيب، رشيد، الخلفية الاستشراقية والدعوة إلى العامية، مجلة الفيصل العدد 250 سبتمبر 1997م، العربية السعودية.
4. بلحبيب، رشيد، المنظومة اللغوية وتكامل المعرفة، دار العالم العربي للنشر، دبي ط1 سنة 2005.
5. خلافة، عبد الله، الفرزكوفونية في المشهد الإعلامي المغربي، (انظر مجلة الفرقان، العدد 65 / 1431 - 2010)
6. الرافي، مصطفى صادق، وحي القلم دار ابن حزم، 1429هـ.
7. كالفي، لويس جان، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة.
8. لوبون، كوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتري، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1969م
9. المبارك، مازن، نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1979م.
10. محمد، الأوراخي، التعدد اللغوي، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2002م.
11. الناصري، الشيخ المكّي، فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى، الرباط 1993م.
12. نداء من أجل العربية، أحمد الريسوني، مجلة الفرقان، العدد 65 / 1431 - 2010.

13. ياسين، عبد السلام، الإحسان، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1998.
14. ياسين، عبد السلام، الإسلام والحداثة، مطبوعات الهلال، وجدة، ط 1، 2000.
15. ياسين، عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية، ط 1، 1989.
16. ياسين، عبد السلام، الإسلام وتحدي الماركسية اللينينية، ط 1، 1987.
17. ياسين، عبد السلام، الشورى والديمقراطية، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1996.
18. ياسين، عبد السلام، العدل: الإسلاميون والحكم، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 2000.
19. ياسين، عبد السلام، القرآن والنبوة، دار لبنان، 2010.
20. ياسين، عبد السلام، المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، ط 1، 1981.
21. ياسين، عبد السلام، إمامة الأمة، دار لبنان للطباعة والنشر، ط 1، 2009.
22. ياسين، عبد السلام، حوار الماضي والمستقبل، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1997.
23. ياسين، عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1994.
24. ياسين، عبد السلام، حوار مع صديق أمازيغي، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط 1، 1997.
25. ياسين، عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط 1، 1989.